اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام ج٤ | الآيات [٢٥ :٣٢]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ..نكمل بإذن الله عزَّ وجل وقفات مع سورة الأنعام.

توقفنا عند قول الله -عز وجل- {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين *وهو ينهون عنه و ينئون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون}[الأنعام: ٢٥-٢٦] المرة السابقة بعد أن تكلمنا عن قوة الإيمان التي تحدث للإنسان عند استحضار صفات ربنا -سبحانه وتعالى-.

الآيات من أول (١٢-١٨) {قل لمن ما في السماوات والأرض} {قل أغير الله أتخذ وليا} {قل إني أخاف إن عصيت ربي} {وإن يمسسك الله بضر} {وهو القاهر} ، كل هذه الصفات عندما تترسخ في قلب الإنسان تعطيه قوة ويقينا، تجعله يستطيع أن يذهب ويناظر أهل الباطل، ويكون على يقين أن الدين سينتصر... فيقول لهم {أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم}[الأنعام: ١٩] الله -عز وجل- يشهد لهذا الدين.

قلنا كيف يشهد لهذا الدين؟ إن من شهادة لله -عز وجل- لهذا الدين أنه أقر في الفِطَر قبول هذا الدين، هذا شيء في فطرة الإنسان، وأن الله -عزَّ وجل- سيتم هذا الدين (اللهم رب هذه الدعوة التامة)،

الأنعام سورة مكية -زمن الاستضعاف-، فتخيل النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في زمن الاستضعاف يقول: الله -عز وجل- شهيد أني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومن مقتضيات هذه الشهادة أن الله -عز وجل- سوف يُتم هذا الدين .. لا يقل هذه الكلمة غير واثق! يتم هذا الدين، ما معناها؟ معناها أن هذا الدين سيسود العالم، أنت تقول هذا وأنت في بلدك مستضعف! فلا أحد يجرؤ أن يقول هذه الكلمة إلا إذا كان على يقين، إنسان يُضرَب ويُعذب ويُؤذى، وأصحابه يُقتلون ويعذبون، ولا يستطيع حتى أن يطلب الدِّية ويقول الله -عز وجل- سيُتم هذا الدين؛ لذلك نحن بعد الآذان نقول

(اللهم رب هذه الدعوة التامة) التامة، كيف ونحن مستضعفون في كل مكان؟! سوف يتم حتما عندنا يقين... إذًا هذا- اليقين بتمام الدين-هي الشهادة الثانية، والشهادة الثالثة الموجودة في بقية الآية {وأوحي إلي هذا القرآن}[الأنعام: ١٩] فالقرآن شهادة من الله -عز وجل- بصدق النبي -صلى الله عليه وسلم- .

وبعد ذلك تكلمنا عن الخلاف في :{ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين}[الأنعام: ٢٣] ، وشرحنا الآية

نبدأ الآية{ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة}[الأنعام: ٢٥] قلنا كلمة {ومنهم} هذا صنف من أصناف المشركين غير الصنف الذي تتحدث عنه السورة من الأول، فالسورة بدأت بثلاث آيات{الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور}[الأنعام: ١] الآية الأولى تتكلم عن أن الله -عز وجل- جعل ظلمات وجعل نور، الله -عز وجل- بين طريق الهداية وطرق الظلام وحذرنا منها، ربنا يقول هناك طريق للهداية وطرق للظلام، هذه هي الآية الأولى، الآية الثانية أن الله عز وجل قضى أن هناك أجل{هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده}[الأنعام: ٢]، الآية الثالثة كلام عن الله وقدرته{وهو الله في السماوات والأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون}[الأنعام: ٣]، هذه ثلاث حقائق يجادل فيها المشركون طوال السورة، الحقيقة الأولى قضية الهدى والنور وهي القرآن، الحقيقة الثانية هي حقيقة البعث، الحقيقة الثالثة صفات الله -عز وجل- المطلقة . فهذه الثلاث صفات يجادلون فيهم؛ فجاءت سورة الأنعام هنا توضح هذه الحقائق الثلاث.

بعدها بدأ بأول قضية وهي قضية الظلمات والنور وجاءت الآية الرابعة مباشرةً {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام: ٤] تبين أن هناك أناس مهما يأتيهم القرآن ومهما يأتيهم من آيات يظلوا معرضين!، وبدأ في نقاش هذه الطائفة التي تأتيهم الآيات ويعرضوا، نقاش طويل استمر حتى آية ٢٤{انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون}[الأنعام: ٢٤] نقاش طويل مع هؤلاء الناس، لكن ربنا يقول إن الطائفة الأولى لما كان يتلى عليها القرآن كانت تعرض، لا تريد أن تسمع {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام: ٤] إذا الطائفة الأولى تتلو عليها القرآن ماذا تعمل؟ ..لا تريد أن تسمع !

هناك طائفة ثانية تقول: اسمع، لابأس، ظاهريا تعتقد أن الأولى أسوأ، وأن الطائفة الثانية أحسن، لكن تفاجئ عندما تأتي تقرأ السياق تفاجئ أن الطائفة الثانية أخبث؛ لأن الطائفة الثانية طائفة الرؤساء الذين يريدون أن يضلوا أتباعهم، يريدون أن يظهروا أنهم فاهمين، ويقولون لأتباعهم نحن سنسمع ونرى ماذا يقول هذا الرجل وسنسمعه وبعد أن يسمعه يقول: هذا أساطير الأولين، بحيث يظهر أمام الناس أنه حكم بعد أن استمع.

ستفاجأ أن القرآن عامل الطائفة الأولى معاملة غير الطائفة الثانية، الطائفة الأولى ناقشها و أفهمها و ووضح لها ولما طلبوا آية قال لهم إن هذه الآية لا تصلح، وختم النقاش مع الطائفة الأولى بآية{ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم}[الأنعام: ٢٢] إذًا هؤلاء كانوا أناس يتخذون السادة شركاء فيخدعوهم.

وإذا أخبرتهم أنهم مخدوعين!... أحبارك ورهبانك والسادة والقادة أنت ألهتهم، أنت اتخذتهم آلهة! يقول لا {والله ربنا ما كنا مشركين}[الأنعام: ٢٣] ، مثلما قال عدي بن حاتم... لما النبي –صلى الله عليه وسلم– قرأ آية التوبة {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دول الله}[التوبة: ٣١] فعدي بن حاتم قال له يا رسول الله: ما اتخذناهم أربابا من دون الله، فقال لهم ألم يحلوا لكم ما كان حراما عليكم، ويحرموا لكم ما كان حلالا وأطعتموهم؟ قال: نعم... قال: فتلك عبادتكم لهم.

فهنا يقولون الذي أضاعنا{ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين}[الأنعام: ٢٣] لم يكن يفهم أنه بذلك هو مشرك بالله ! أعطى زمام عقله لشخص يقوده –من عقله وفكره– في قضايا توحيد، شخص يتبعه وهو لا يُعمِل عقله فيشرك بالله! كما قال تعالى{ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني}[البقرة: ٧٨] هو لا يفهم شيئا في الكتاب، يقول لماذا أفهم وهناك غيري يفهم في الكتاب!!!

رؤساء بني إسرائيل يعتمدون أساسا على أن غالبية بني إسرائيل لا يفهم التوراة؛ فيغيرون في التوراة كيفما شاءوا، فيحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال... فالأتباع والضعفاء مسؤولون عن ضياع أنفسهم !

دائما القرآن يعلمنا شيئا عجيبا جدا، أن التابع الضعيف المخدوع يجب أن نستفيض في النقاش معه، ونفهمه ونوضح له أنك مخطئ... أما الرئيس المتبوع نواجهه بضربات قاصمة لأنه فاهم ومدرك. وكنا أتينا بهذا المثال في الدرس قبل الماضي تقريبا... في سورة الحج، وقلنا في مقدمة سورة الحج ربنا قال

{ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع} ، فهذا تابع{ويتبع كل شيطان مريد* كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير}[الحج: ٣-٤] ، بما أنه تابع فالقرآن ناقشه يريد أن يحرره من العبودية الوهمية التي يعيش فيها للسادة، يناقشه يقول له {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ...}[الحج: ٥] والآية مفصلة طويلة .إذًا هذا هو الصنف الأول{ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع...}.

أما الصنف الثاني{ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير* ثاني عطفه ليضل} يلوي عنقه لكي يخدع الناس {ليضل عن سبيل الله} يضل الناس{له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق* ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد}[الحج: ٨-١٠] آيتين للتخويف، لماذا لا يناقشه ؟ لأنه على علم!

إذا الآيات الأولى كانت لأناس مُغرر بهم مخدوعين، ولا تريد أن تسمع القرآن{وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام: ٤] لم يريدوا أن يسمعوا القرآن. لماذا؟، ستفاجئ بمجيء آية{وهم ينهون عنه}[الأنعام: ٢٦] السادة والمتبوعون قالوا لهم: إياكم أن تسمعوا القرآن وإلا سيخدعوكم!، فالضعفاء قالوا: نعم، لن نسمع القرآن! فأنت تفاجأ أن الناس الذين ورد ذكرهم في أول السورة لا يريدون سماع كلامك لأنهم أخذوا أوامر بذلك من سادتهم.

سورة الأنعام بدأت بعد المقدمة -ثلاث آيات- وبعدها {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام: ٤] هناك أناس يأتون تقرأ عليهم القرآن لا يريدون أن يسمعوا، فهؤلاء في الغالب أتباع مخدوعين، سواء أتباع شهوات، أتباع سادة، أتباع لقادة، أتباع لآلهة ضالة... ففصلنا في النقاش معهم حتى أفهمناه أن الذي وضعته بينك وبين ربك سيتبرأ منك{ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم}[الأنعام: ٢٢]، لو استطعت مع التابع الضعيف أن تكسر له حاجز الرهبة من الأسياد، لو استطعت أن تكسر له هذا الحاجز، سيتحرر ويفكر معك .

عندما تتناقش مع واحد مثلا أسير فكرة، أو أسير لجماعة معينة، أو أسير قادة يخدعوه، وظيفتك أن تكسر الرهبة والتفخيم الذي في فكره لهذه الشخصيات، هو لا يعلم، كلامك أصلا لا يصل له... هو عنده قواعد في فكرة يتبعها.

مثلما تناقش نصرانيا- ليس باحثا عن الحق- هو مغلَق أصلا .. فهذه الناس{وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام: ٤] فأنت أتيت له بمصارع المكذبين، وأريته عيانا بدون فائدة، كلمته عن ربنا دون فائدة، ناظرته قلت له أي شيء أكبر شهادة دون فائدة ! ذكرت له يوم القيامة صورة الشركاء الذين اتخذهم وكانوا حائل بينه وبين فهم القرآن، وقلت له: أنت نفسك ستتبرأ منهم يوم القيامة {ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون *ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين *انظر كيف كذبوا على أنفسهم} آخر مشهد الشركاء يتركونهم ويمضون{وضل عنهم ما كانوا يفترون}[الأنعام: ٢٢-٢٤].

بعدها جاء الصنف الثاني {ومنهم}أي ومن المشركين {ومنهم من يستمع إليك} ظاهريا جاء يمثل أنه يسمع القرآن، ليس"يسمع" فقط... لا{ومنهم من يستمع إليك} هو يُظهر كأنه يصغي ويركز، ومعه ورقة وقلم{ومنهم من يستمع إليك}جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول له: اقرأ علي القرآن،أنا لن أتعجل الحكم كالذين ليس لهم عقول ومخدوعين، اقرأ علي القرآن وأنا سأقرر ، فربنا يقول له{وجعلنا على قلوبهم} أي هؤلاء المتظاهرين بالاستماع {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه} القرآن لن يؤثر فيهم {وفي آذانهم وقرا} لماذا؟{وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها} ليس" وإن يسمعوا" لا... بل{وإن يروا} حتى لو رأى الآيات عيانا لن يؤمن...لماذا ؟ هو جاء [[**ومتخذ قرار مسبق أنه لن يؤمن**]]؛ لذلك الآية بعدها تقول{حتى إذا جاءوك **يجادلونك** يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين}[الأنعام: ٢٥] هو آخذ قرار مسبق أنه يأتي ليجادلك، جاء ليقول على القرآن أساطير الأولين، لكن بدلا من أن يقول القرآن أساطير الأولين قبل أن يسمع ، فأنت ستطلب منه الاستماع... فهو يُظهر السماع وبعدها يقول: نعم أنا سمعت وتدبرت وتأملت وفكرت وركزت وأخذت قرارا أن هذا أساطير الأولين!!!

دائما يا جماعة الذي يسمع ليجادل غير الذي يسمع لكي يهتدى!... بمعنى؛ الذي يسمع لمجرد أن يلتقط أخطاء للجدال والمراء لا يُهدى، غير الذي جاء ينصت للقرآن ويستمع لأنه موقن أن هذا كتاب هدى، وأن فيه النور والبصائر والبينات. {حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين} ، آخذ قرار مسبق ، ويسمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ القرآن فيقول: ما هذا؟! هذا أساطير الأولين! لأنه أخذ القرار داخليا بعدم الإيمان.

هذا الموقف يشبه من؟ هذه تمثيلية مثل{وقالت طائفة من أهل الكتاب ءامنوا بالذي أنزل على الذين ءامنوا وجه النهار واكفروا آخره}[آل عمران: ٧٢] ولكن لماذا نؤمن ونكفر، لماذا هذه التمثيلية؟ لماذا نؤمن في أول اليوم ونعود نكفر في آخر اليوم، رغم أنه أخذ قرارا مسبقا أنه سيكفر آخرالأولي؟! {لعلهم يرجعون} أي يرجع المؤمنون عن دينهم، إذا رأوكم رجعتم أنتم أيضا عن هذا الدين الجديد!!!، فهو يقول لك: نحن ءامنا بالدين ولكن فوجئنا بما وجدناه... كنا معتقدين أنه مثلا دين حريات، كنا معتقدين أنه دين ينير العقول، كنا معتقدين أنه دين سيراعي المرأة، كنا معتقدين كذا وكذا... ثم يقول نحن لا ننتقد من الخارج، ولكن دخلنا ورأينا الدين ودرسناه دراسة عميقة، وليس لازما أن يكون المقصود ب {وجه النهار واكفروا آخره} في نفس اليوم ! ممكن أن يكون قد أخذ قرارا مسبقا بالكفر ولو بعد فترة طويلة!!!

فأحيانا الإنسان يتعجب كيف تكون هناك آيات وأحاديث وشروح وتفاسير وكتب؛ نورا لأناس و وبالا على أناس؟! لأن من دخلها أصلا بقرار مسبق! مثل كثير من المستشرقين قرأ كتبا أنت لم تقرأها في حياتك، والإنسان عندما يقرأ ربع الكتب التي قرأوها التي يستخرجون منها شبهات يجد أن إيمانه يزداد! لأن- هذا المستشرق-أخذ قرارا من البداية أنه يقرأ لأجل الشبهات، أخذ قرار الكفر من البداية!

أحيانا يأتي الله -عز وجل- به، أي أحيانا تجد من يدخل للبحث عن الشبهات، كما يروى في قصة إسلام حسان بن ثابت، ذهبوا إليه وقالوا له: خذ هذا المال وٱهجُ النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فصعد على ربوة عالية وانتظر مجيئ النبي -صلى الله عليه وسلم- ليهجوه، فعندما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : لما رأيت وجهه وضعت كفي على بصري خوفا من نوره... وعاد للمشركين وألقى إليهم أموالهم، وقال لا أريد منكم شيئا، وقرأ عليهم الأبيات التي قالها لمدح النبي -صلى الله عليه وسلم- وأسلم.

فأحيانا يذهب إنسان ليضر بالدين ربنا -سبحانه وتعالى- يأتي به، لكن غالب من يدخل ليبحث على الشبهات لا يُهدى .

فهؤلاء أتوا {ومنهم من يستمع إليك} يُظهرون أنهم يسمعون القرآن{حتى إذا جاءوك يجادلونك} أخذ قرارا من البداية أنه جاء ليجادل{حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا} وانتبه إلى أنه أعد الشبهة التي سيقولها قبل أن يأتي، أخذ قرارا بما سيقوله{إن هذا إلا أساطير الأولين}[الأنعام: ٢٥]

ورد في بعض الروايات أنهم قبل الذهاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- يرتبوا أن يكون هناك شخص منهم بجانب النبي -صلى الله عليه وسلم- يجلس في مجلس ويقول أحاديث الأقوام السابقة بحيث يقول: ما هذا؟! هذا يقول قصصا وهذا يقول قصصا، لكن فلان -النضر بن الحارث- الذي يقول القصص لم يدَّعِ النبوة، وأنت تدعي النبوة! هذه أساطير الأولين مثل هذا. فجهز الشبهة وجهز واقعا يلقي فيه الشبهة... انتبه! لم يقل أساطير الأولين واكتفى ! لا، ولكنه جهز ما سيقوله، ورتب بيئة إعلامية تتلقى هذه الشبهة بالقبول... فيقول من يسمعه: نعم فعلا هذه أساطير الأولين، وفلان يقول مثله أساطير الأولين، ويظلوا ينشرون هذه الشبهة عند الناس... ربنا يقول: بالرغم من أنه يقول عن القرآن أساطير الأولين وأنها مجموعة قصص وهناك أناس مثله تقول قصصا؛ بالرغم من هذا ربنا يقول:{وهم}أي وحالهم، أي يقولون عليه أساطير الأولين لكن حالهم {وهم ينهون عنه}[الأنعام: ٢٦] يمنعون الناس من الذهاب ليسمعوا القرآن، عجبا! لماذا تمنعون الناس من أن تسمع القرآن؟ أليس هو -في ظنكم- أساطير الأولين! أليس هو مثل كلام النضر بن الحارث، فلماذا لا تمنعون الناس من كلام النضر بن الحارث! لماذا تغلقون هذه القنوات وتتركون تلك؟! لماذا تنهى الناس عن سماع القرآن؟ ألم تقل أنه أساطير الأولين! ألم تقل أنه مجرد كلام وقصص، فلماذا تخاف منه! هو لا يخاف على الناس فقط... لكنه خائف على نفسه أيضا {وهم ينهون عنه **وينئون** عنه}[الأنعام: ٢٦] يبعد نفسه عن سماع القرآن لئلا يتأثر . يعني ليست "ويبتعدون عنه"، لا{وينئون عنه} ينأى أي يبتعد كثيرا مثل قولنا مناطق نائية... النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول (من سمع بالدجال فلينأى عنه)[1] ليس فقط" فليبتعد عنه"... أي هو خائف على نفسه من تأثير القرآن! لذلك مثلما قلنا في خواتيم سورة الحجر كانوا يقفون على مداخل مكة يوزعون الكرسف-القطن- [كل الذي يدخل مكة يضع القطن!] لم يكتفوا بأن يقولواعلى مداخل مكة: انتبه!

- ١[عن عمران بن الحصين:] من سمع بالدَّجّالِ فليئأ عنه، فواللهِ إنَّ الرَّجلَ ليأتيه وهو يحسَبُ أنَّه مؤمنٌ فيتبعُه ممّا يبعثُ به من الشُّبهاتِ، أو لما يُبعَثُ به من الشُّبهاتِ

الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح أبي داود ٤٣١٩ • صحيح • أخرجه أبو داود (٤٣١٩) واللفظ له، وأحمد (١٩٩٦٨).

هناك رجل كذاب يقول أساطير الأولين... لم يكتفوا بهذا... بل أيضا لا تسمعوه وأعطوهم الكرسف!... أنت قلت أنه مجرد أساطير الأولين فلم تخاف من سماعه؟!، هذا الخوف هو خوف على فطرته أن تستيقظ، فتخيل!، هو يعلم أن شيئا ما سيستيقظ لو سمع القرآن! لأن هؤلاء من أهل العلم لكن ليس العلم الممدوح، هو يعلم أن القرآن حق...هؤلاء الرؤساء المتبوعون القادة يعلمون أن القرآن حق؛ لذلك أغلب المعاني في قول الله –عز وجل– {وجحدوا بها و استيقنتها أنفسهم}[النمل: ١٤] قالوا هذه في علمائهم وليس كل الناس!. بعض العلماء قال ليس كل الناس ينطبق عليهم هذا الوصف.

فتخيل من رعبهم من سماع القرآن أصدروا نهي عن سماع القرآن {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه}[فصلت: ٢٦] أي اعملوا ضوضاء وتشويش أثناء تلاوة القرآن وأقيموا مجالس لهو!... آية فصلت؛ قيل كانوا يقيمون مجالس غناء أثناء تلاوة النبي –صلى الله عليه وسلم– للقرآن، مثلما فعلوا وقت صلاة التراويح اخرجوا للناس ثلاثين مسلسلا في هذا الوقت! دائما في أوقات الطاعة يملأوها باللهو واللغو والفسق لكي لا يسمع الناس القرآن{وألغوا فيه} لغو ليشوّشوا على الناس، جعلوا قلوبهم ملهية عن سماع القرآن .. لماذا؟ خوف من أن القرآن يؤثر في الفِطَر! وهذه أحد أوجه شهادة الله –عز وجل– لهذا الدين .

{وهم ينهون عنه} فقط!...بل أيضا{وينئون عنه}[الأنعام: ٢٦] .هناك أثر ذكره ابن هشام في السيرة، أن أبا جهل وأبا سفيان والنضر بن الحارث أو غيره... كانوا يذهبون عند بيت النبي –صلى الله عليه وسلم– ويسمعون القرآن وتَلاقوا مرة هناك قدرا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا ثم رجعوا مرة أخرى، وكانوا يتعاهدون كل مرة على ألا يعودوا، كانوا يأتون يسمعون القرآن. ابن أخطب– من اليهود–عندما علم وأيقن أن هذا هو النبي –صلى الله عليه وسلم– وسألوه: علامَ نويت ؟ قال عدواته ما بقيت!

إذًا الرؤساء والقادة والمتبوعون يعلمون أن هذا هو الحق لكنه هنا بدأ بداية خبيثة جدا، بماذا بدأ؟ {ومنهم من يستمع إليك}[الأنعام: ٢٥] ذهب إلى المجلس وجلس وسط الناس وتظاهر بأنه يستمع ثم انتفض وقال: ما هذا؟! أليس لنا عقول؟!هل سأكون مثل الناس و يتم خداعي!!!.

لذلك دائما الشبهة التي تذكر من أيام سيدنا نوح على أتباع الرسل {ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا **بادي الرأي**}[هود: ٢٧] ماذا تعني {بادي الرأي}؟ قيل بادي الرأي لها معاني، منها: عندما سمعوك لم يفكروا وتم خداعهم، أول ما بدا لهم أن يتبعوك اتبعوك دون أن يفكروا لماذا؟!... يريد الكفار أن يقولوا

أن أتباع الرسل لم يفكروا، يمشون فقط، ماذا يقال عليهم؟.. خراف! هذا الوصف وهذه السُبة تطلق منذ زمن، ولكن لماذا لا ينطبق عليك هذا الوصف؟ يقول: لا، أنا سمعت وأخذت القرار أنه أساطير الأولين، فالتُهم جاهزة منذ زمن؛ لذلك ربنا ماذا يقول؟ {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} تهمة ساحر أو مجنون، هذه تهمة قيلت لكل الرسل من قبل؛ لذلك ربنا يقول بعدها {أتواصوا به بل هم قوم طاغون}[الذاريات: ٥٢-٥٣].

إذًا استقراء القرآن يعرفك الحق، ويعطيك قوة نفسية للمواجهة، أنك لست في الطريق وحدك، لذلك ربنا بعد هذا الشوط يقول {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا}[الأنعام: ٣٤] إذًا ستجد في طريقك مثل ما وجد الأنبياء من قبلك! وطبعا لن تجد كما ابتلوا كمًا وكيفًا، لكن ستجد جزءا منه... لأن (يبتلى المرء على قدر دينه)[٢]

مداخلة لأحد الحضور غير مسموعة... جواب الشيخ: هم الذين أغلقوا على أنفسهم سبل الهداية، قال تعالى {ومن يشاقق الرسول من بعد **ماتبين** له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى...}[النساء: ١١٥].

سؤال آخر من الحضور... جواب الشيخ:{وجعلنا على قلوبهم **أكنة**...}[الأنعام: ٢٥] هذا عقاب لأنه أعرض بعدما تبين له الهدى... واضح.

- ٢ [عن سعد بن أبي وقاص:] قلتُ يا رسولَ اللهِ أيُّ النّاسِ أشدُّ بلاءً قالَ الأنبياءُ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ؛ يُبتلى الرَّجلُ على حسَبِ دينِهِ، فإن كانَ في دينِهِ صلبًا اشتدَّ بلاؤُهُ، وإن كانَ في دينِهِ رقَّةٌ ابتليَ على قدرِ دينِهِ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتّى يتْرُكَهُ يمشي على الأرضِ وما عليهِ خطيئةٌ.

الترمذي (٢٧٩ هـ)، سنن الترمذي ٢٣٩٨ • حسن صحيح.

{وهم ينهون عنه وينئون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون}[الأنعام: ٢٦] هو معتقد أنهم يصرفون الناس عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فلا يكون له أتباع، فالنبي يموت والدعوة تندثر، وبذلك يكونوا قد استطاعوا القضاء وإهلاك الدعوة... هذا اعتقادهم !!! لكن ربنا يقول لهم {وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون} عندما تمنع نفسك عن القرآن وتمنع الناس عن القرآن أنت تهلك نفسك! وهنا قاعدة من هذه الآية :

*كل بعد عن القرآن هو هلاك دون أن تشعر {وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون} *

عندما يبتعد الإنسان عن القرآن يهلك دون أن يشعر، ولو أبعد الناسَ عن القرآن هو يُهلك الناس دون أن يشعر، حتى ولو بدون قصد منا، نشغلهم بأشياء أخرى عن كلام ربنا –سبحانه وتعالى– فنحن بذلك نهلك الناس! كل شيء نقوم به فيه لإبعاد الناس عن كتاب الله –عزوجل– حتى لو شغلناهم بأشياء أخرى ذات فائدة... هذا إهلاك للناس {وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون}

انظر إلى السياق الطويل الخاص بآيات الأتباع من أول {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام: ٤] سياق طويل.

أما هؤلاء السادة هنا ربنا –سبحانه وتعالى– نقلهم مباشرة لمشهد تخويفي في الدار الآخرة، فقط آيتين قالوا {أساطير الأولين}،{وهم ينهون عنه وينئون عنه} تكلموا عن القرآن أنه أساطير الأولين، أخذهم الله لمشهد مخيف، أوقفهم على النار {ولو ترى إذ **وقفوا** على النار}[الأنعام: ٢٧] كلمة (وقفوا) هذه يعني وقف بالرغم عنه، من الذي أوقفه؟ لم يذكر الله –عزوجل– زيادة في التخويف، الملائكة تربطه ..تحبسه ..مربوط، لا يستطيع أن يتحرك {ولو ترى إذ وقفوا على النار} قيل وقفوا على النار إما على شفير جهنم، أي تم وضعه على شفير جهنم قبل أن يسقط فيها، وقيل وهو يسير على الصراط، وقيل وهو في النار، هذه ثلاث أقوال:

قالوا {على} بمعنى في :وهو داخل النار وهذا اختاره الإمام الطبري،

وبعضهم قال{على} هذه يعنى على شفير جهنم، وبعضهم قال {على} سنتركها بمعناها فيكون على النار فعلا فيكون على الصراط .

وبعضهم قال: كلمة أوقفته على كذا... أي عرفته حقيقته، أي هو واقف من بعيد ورأى النار... أيا كان، عندما عاين النار حقيقةً سواء رؤية أو ملامسة، عندما رأى النار من غير أن يقنعه أحد ولا يُقرأ عليه قرآن، ماذا قال عندما رأى النار؟

{يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا} أليست هذه هي الآيات التي أعرضت عنها واستهزأت بها وقلت أساطير الأولين!... ءآمنت الآن ! أين وسيلة الإقناع هنا ؟ أنت كنت تتظاهر بأنك تفكر!

يا جماعة كثير من الرفض الذي نراه هو ليس لعدم الإقناع؛ لذلك كثير من المجهود الذي يُبذل مع بعض الناس لكي يقنعه، هذا مجهود ضائع ! المجهود الذي تحتاج لأن تبذله هو مجهود البشارة والنذارة، إحياء الإيمان أولا داخله...إنما مجهود الإقناع كثير منه ضائع.

مثلا عندما تكلم شخصا ساعة في الأغاني أو ساعة في أشياء محرمة، في قضايا إقناعية، مشكلته ليست في الإقناع أساسا؛ لذلك في سورة الدخان وهذه في منظومة "آل حم" جزء طويل من أول سورة غافر في جدال مع المشركين {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد}[غافر: ٤] في أول سورة غافر...القرآن من أول سورة غافر يوضح لهم ويبين لهم الآيات،في سورة غافر يبين لهم الآيات، وفي سورة فصلت وفي الشورى وفي الزخرف كل هذا ولم يؤمن ، السور متتابعة- آل حم- كل هذا ولم يؤمن! عندما رأى الدخان فوقه {يغشي الناس هذا عذاب أليم}، ماذا قالوا عندما رأوا الدخان؟ {ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون}[الدخان: ١١-١٢] يعني كل الآيات القرآنية والإقناع لم يؤثر فيكم عندما رأى الدخان قال: آمنت!!!

أيضا مثل المشركين تظل تتناقش معه ثلاثة أيام دون فائدة .يدخل منتصف البحر، الموج يرتفع... يقول آمنت!

أين وسيلة الإقناع في منتصف البحر!

فهنا أتى الله له بصورته، صور له صورته واقفا على النار، ومن غير أن يقنعه أحد ولا شيء، ماذا قال عندما وقف على النار ؟ {يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}[الأنعام: ٢٧] أنا الآن أيقنت أنها آيات فعلا من عند ربنا... انتبهوا نحن ذكرنا من المعاني في سورة الأنعام أن المشركين يوغلون في طلب آية، يريدون آية، سنؤمن عندما تأتي لنا بآية!

و بدأت السورة {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[الأنعام: ٤] ظلوا طوال السورة يطلبون آية، نزل ملك، نزل كتاب في قرطاس، وهم يطلبون آيات، لكن ماذا قال عندما وقف على النار؟ قال: لا أريد آية، آمنت أن القرآن هو آية من آيات ربنا -سبحانه وتعالى- {ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}[الأنعام: ٢٧]

بعدها ربنا يقول{بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل}[الأنعام: ٢٨] ماذا يعني؟ هذه الآية تكلم فيها المفسرون كثيرا،

مثلا الإمام محمد رشيد رضا جاء عند هذه الآية وأتى فيها بثمانية أقوال ثم جاء بقول تاسع واستفاض فيه، جمع فيه كثير من الأقوال ووقفوا عندها كثيرا.

المعنى الذي سنختاره حتى لا ندخل في خلافات: سنمشي مع سياق أن هذا السياق يخاطب الذي يمثّل أنه يسمع "القادة، المتبوعون، السادة" يخاطب هذه الفئة. هؤلاء الناس يعرفون في داخلهم أن هذا الحق! لذلك ماذا كانوا يعملون؟ كان ينهى الناس عن السماع، وكان ينأى بنفسه، وكان يلغو أثناء القرآن، لماذا؟ حتى لا تستيقظ الفطرة، وليس فقط فطرة الناس، هو أيضًا كان يخبّئ في داخله أشياء لا يريد أن يظهرها، وكان يخبئ أمورًا عن الناس لا يريد أن يُظهرها.

إذًا دعونا نفهم أولا كلمة {يخفون}، نريد أن نعرف ما الذي كانوا يخبّئونه؟ حتى نعرف ما الذي ظهر؟! الذي كانوا يخبئونه حقيقة إيمانهم ويقينهم الداخلي، أن هذا هو الحق ولكن كانوا جاحدين! مثل فرعون وهو يغرق قال: "آمنت!"، وكانوا يخفون عن الأتباع معرفتهم أن هذا الحق، لذلك جاءت الآيات قبلها: {الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}[الأنعام: ٢٠] لكن كانوا يخفون هذا.

وليس كل بني إسرائيل الذين كانوا موجودين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، لكن كان قلة منهم "عبد الله بن سلام"، لذلك إيمان عبد الله بن سلام أحدث هزّة في صفوف اليهود، مع أن هناك ناس آمنت منهم! لما أسلم أخذه النبي صلى الله عليه وسلم وذهب به لليهود وخبَّأه وقال لهم: (ما تقولون في عبد الله بن سلام؟)، قالوا: "سيدنا وابن سيدنا"، فخرج عبد الله بن سلام وقال

"أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله"، فماذا قالوا؟ "سفيهنا وابن سفيهنا"!!! انقلبوا في لحظة! فإسلام عبد الله بن سلام أحدث هزَّة في صفوفهم.

فكلمة {ما كانوا يخفون} أي كانوا يخفون عن الأتباع، كانوا يخدعوهم وكان يخفي على نفسه، كان ينهى الأتباع وكان ينأى بنفسه، كان يخبئ أشياء عن الأتباع، وعن نفسه، لا يريد لنفسه أن تسمع القرآن! فأول ما يرى النار يُظهر كل هذا! أنا فعلا كنت مخفيا، أنا كنت أعرف أن هذا هو الحق!، ويرى ذلك أيضا الناس حوله، ولذلك قال بعضهم: {بل بدا لهم} أي للضعفاء الأتباع {ما كانوا يخفون} أي المتبوعون السَّادة، أو {بدا لهم} هم أنفسهم التي كانوا يخبئونه... كل ما يخفيه الإنسان سيظهر يوم القيامة!

نحن يمكن أن نأخذ الآية هذه قاعدة عامة بعيدًا عن سياق المشركين؛ كل واحد منا يخبئ أشياء معيَّنة له كأعذار، واحد تقول له: أنت لماذا لم تأتِ للدرس؟ فيقول أعذارًا وهمية ويخبئ الحقيقة... فهذا سيظهر يوم القيامة.

أحيانا الإنسان يُقنع نفسه بأعذار وهمية حتى لا يفعل الطاعات؛ هو بهذا يضحك على نفسه، يكذب على نفسه، سيظهر له أنه كان كذابًا! أحيانا أنت تخفي عن الناس، وأحيانا تخفي عن نفسك؛ على غرار {والله ربنا ما كنا مشركين}[الأنعام: ٢٣].. ستظهر الحقيقة! أنه ظل يكذب على نفسه إلى أن صدَّق أنه ليس مشركًا! هناك أيضا من ظل يُقنع نفسه أنه ليس قادرًا وأن الموضوع صعب! هناك ناس مثلا تكلمهم في طاعات فيقول لك: "والله حاولت ألف مرة" وهو كذاب! ويعيش في دور أنه مغلوب على أمره وأن القدر هو الذي فعل فيه هكذا في ارتكاب معاصي، يضحك على نفسه، يعذر نفسه بأعذار وهمية ويصدقها.

{لا تخفى منكم خافية}[الحاقة: ١٨] قالوا أحيانا أنت تخبئ أمورًا على نفسك... {يوم تبلى السرائر}[الطارق: ٩] كل السرائر الموجودة داخل الإنسان ستظهر يوم القيامة ..ربنا يسترنا!

هذا لمن أراد الله أن يفضحه... الإنسان ممكن أن يُفضح أمام نفسه، أو يُفضح أمام مجموعته، ممكن يفضح -والعياذ بالله- على رؤوس الأشهاد؛ {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم}[هود: ١٨] والعياذ بالله يُنادَون على رؤوس الأشهاد .

مداخلة غير مسموعة من أحد الحضور... رد الشيخ : {كلا بل تحبون العاجلة}[القيامة: ٢٠] هو يختار الأمتع.. غالب من يشرب السجائر مثلا إن لم يكن جميعهم يعلمون أنها مضرة... يضعون لهم صورا وتحذيرات على عبوات السجائر لكن يظل يشربها ..فهو لا يختار الأفضل لكن يختار الأمتع!

{بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل} (بل) هذه ماذا تعني؟ يعني أنتم كاذبون، وما الكذب الذي قالوه؟ {يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا}[الأنعام: ٢٧] ؛ معنى كلامهم هذا: يا رب الآن عرفنا أن وعد الله حق، فربنا يقول لهم: لا، أنتم كنتم تعرفون هذا وأنتم في الدنيا لكن كنتم تخفون ذلك!

{بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل} أي يُخفون في الدنيا، لذلك ربنا ماذا يقول لهم؟ {ولو ردُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون}[الأنعام: ٢٨] تخيل هم يقولون: {يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}، ربنا يقول لهم: لو أعدتكم للدنيا مرة ثانية ستكفرون مرة أخرى! هذه الآية العلماء وقفوا عندها وقالوا كيف؟ واحد رأى النار بعينه، أو واحد دخل النار وشُوي فيها -والعياذ بالله- وربنا يرجعه للدنيا يختبره مرة أخرى فيكفر!... نعم{ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه} لماذا؟

القرار -قرار الإيمان- حين يؤخذ اضطرارًا غير لما يؤخذ نتيجة قناعة واختيار من الإنسان، هو هنا لما أخذ قرار الإيمان في الدار الآخرة أمام النار أخذه فقط هربا من النار، بالضبط مثل قرار {دعوا الله مخلصين له الدين} أين؟ في منتصف البحر! {فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون}[العنكبوت: ٦٥] هذه نفس فكرة {ولو ردوا لعادوا}، لذلك ربنا قال لهم: {أم أمِنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى}؟ أنت الآن لما رجعت للبر أشركت مرة أخرى!، ربنا ممكن يعيدك مرة أخرى للبحر! {فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم}[الإسراء: ٦٩] لا يجب أن تعود مرة أخرى لمنتصف البحر حتى تؤمن!!!

أغلب الناس –وهذا شيء نشاهده– تجد الإنسان في تعبه الشديد: "يارب يارب" ..! أقرب مثال في الامتحانات والإقبال على المساجد أيام الامتحانات، وصلاة الفجر أيام الامتحانات، والإمام لو قال: يارب نجح الطلاب ..يقولوا: آمين! يا رب نجّحهم وسيتوبوا... إي والله يارب!!! بمجرد ما تنتهي الاختبارات وحتى قبلها– لو قرر أنه لن يختبر هذه المادة الأخيرة– يعود الحال لما كان عليه! ... على فراش المرض لو هو نائم لا يتحرك، لو بدأ يحرّك ظهره فقط يبدأ والعياذ بالله يعصي!، {لو ردوا لعادوا..} لأنه قرار–الإيمان– نتيجة ضغوط.

لذلك بني إسرائيل لما جاء قرار إيمانهم بعد كل الآيات التي رأوها فلم تؤثر فيهم، فربنا نَتَق الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة وقالوا: آمنا! فظلَّ إيمانهم إيمانًا مضطربًا... لماذا؟ لأنهم آمنوا خوفًا من الجبل أن يسقط عليهم، لذلك يروى في الآثار {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة}[الأعراف: ١٧١]؛ لما سجدوا، سجدوا على جانب وينظرون بالعين الأخرى يخافون أن يقع الجبل عليهم!

دائما الذي لا يأخذ قرار الإيمان بنية أنه موقن أنه لا إله إلا الله أن محمدا رسول الله، وأخذه فقط حتى ينجو؛ ينجو من أزمة عنده في دنياه فقط، عنده مشكلة ويريد أن ينجو منها، يكون هذا حاله...أول ما رأى النار أمامه يريد أن يتخلص من النار بأي شيء، كيف أتخلص من هذه النار؟!

مثل فرعون بالضبط؛ فرعون رأى عصا موسى ورأى يده بيضاء ورأى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والنمل... رأى كل هذا ولما بدأ يغرق ماذا قال؟ {ءامنت أنه لا إله إلا الذي ءامنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن}[يونس: ٩٠]! أنت الآن أفقت؟!... كنت في غيبوبة هذه الفترة كلها وأنت ترى الآيات!، لكن فرعون يريد أن ينجو من الغرق فقط! هو فاهم أنه يغرق بسبب معاصيه، هو فاهم أنه يغرق بسبب الكفر فيقول كلمة تُنقذه ، ثم لما يعبر للناحية الثانية سيكمل اللحاق بسيدنا موسى ..! هو فقط يريد أن يتخلص من الغرق، فهذا لا يكون إيمانًا!

لذلك: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه}.

لذلك ما التسلسل الذي سيحصل؟ ربنا يقول: {ولو ردوا..} تخيَّل لو ربنا أرجعه وأول ما يرجع يرى واحدة حلوة تمر أمامه فيتذكر النار.. فيقول: لا أنا من قليل احترقت، وجلست ٢٠ سنة مشويًا في جهنم، أنا عاهدت ربنا إني سأعيش ٥٠ سنة التي بقيت في الدنيا مستقيمًا! شهر اثنين ثلاثة أربعة.. نظرة، شهر اثنان ثلاثة أربعة ..كلمة، شهر اثنان ثلاثة أربعة...ويعود كما كان.

أقول لكم مثالًا، مثلا واحد عمل حادثًا بسبب أنه مهمل في القيادة وربنا أنجّاه، فلما يرجع ويقود بعد ذلك تجده يمسك بيديه الاثنتين ومركّزًا ومنتبهًا للإشارات، بعد فترة يتناسى فيرجع مرة ثانية...! هذا طبع في الإنسان أنه ينسى فيبقى -والعياذ بالله- يقول لك: النار.. بعد فترة يقول: من قال أني سأعود للمعاصي مرة ثانية! ثم موضوع النار هذا كان مرة واحدة فقط وانتهت !

ربنا يقول {ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه وإنهم لكاذبون}[الأنعام: ٢٨] بعدها {وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}[الأنعام: ٢٩] كثير من المفسّرين قالوا أن معنى الآية: أي لعادوا ولقالوا {وماهي إلا حياتنا الدنيا} ذكره الزمخشري وابن كثير وكثير من المفسرين. قالوا معنى الآية: {ولو ردوا} أي لو رجعوا للدنيا، {لعادوا لما نهوا عنه}، سيعودون إلى المعاصي، بعدما يرجع من النار ماذا سيقول في الدنيا؟ {إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين} أنت للتو عائد من جهنم! وتقول: لا ليس هناك بعث!!!

أحد المغسِّلين يحكي: مرة وأنا أغسّل واحدًا فجأة صحي -وهو يغسّله!-، كانت غيبوبة سكر، فخاف كيف أنه كان قد مات وفجأة استيقظ وذهب للمستشفى، يقول: "بعد أسبوع وجدته بالمقهى يدخن الشيشة... المفروض أننا نخوّفه بالموت، فهذا مات من قبل..! فهناك ناس -والعياذ بالله- مهما رأت لا تتّعظ -ربنا يعافينا والواحد يخاطب نفسه أولًا...

من أكثر الآيات التي يشعر المرء أنها تنغزه قول الله -عز وجل- في سورة الأعراف: {وما وجدنا لأكثرهم من عهد}[الأعراف: ١٠٢] وسورة الاعراف أغلبها نقض عهود... فعلا أغلبنا ينقض العهود، تعطي عهودًا وأنا سأصبح صالحًا.. وأول ما يزول الضغط الذي جعلك تأخذ هذا القرار تنسى ثانيةً! لذلك هناك فارق بين الذي يأخذ قرارات وهو مضغوط...حمية وهو متحمس وبين من يأخذها عن يقين.

لذلك ربنا قال: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل}[الحديد: ١٠]؛ قرار الإيمان والالتزام الذي أُخذ في أوقات مُصادِمة لأجواء الإيمان، غير الذي أُخذ الإيمان والتيار الإسلامي رائج أي دولة إسلامية ممكنة ويسير معهم الركب الرائج، غير في زمن الاستضعاف!

{ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون}..

{وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا}؛ هذا على أحد الأوجه أي ولو ردوا لعادوا إلى الدنيا ولم يكتفوا فقط بالتكذيب بالقرآن بل ماذا سيقول أيضًا؟ سيقول: ليس هناك بعث!

هذه أحد أوجه العطف في كلمة (وقالوا): هناك من قال أن هذه الواو إما عطف على {ولو ردوا لعادوا} أي لعادوا ولقالوا أنه ليس هناك بعث.

القول الثاني أن الآية{وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا}

هي في الذين جاؤوا يستمعون للنبي صلى الله عليه وسلم.. فهي معطوفة على {ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول..}[الأنعام: ٢٥] قالوا شيئان : قالوا عن القرآن أساطير الأولين، وقالوا ليس هناك بعث.

إذًا المشركون السَّادة القادة المتبوعون يهاجمون شيئين دائما: القرآن و البعث، يخدعون الضعفاء بشيئين: أنه ليس هناك بعث، ويَلْغون في القرآن.. فهذا القول الثاني.

رد على مداخلة من الحضور...

هو ينكر البعث ولا ينكر وجود الله... هذا مشرك وليس ملحد... الملحد ينكر وجود رب من الأصل... وقيل أن هؤلاء من قالوا كما جاء في سورة الجاثية {وما يهلكنا إلا الدهر}[الجاثية: ٢٤]

لكن هؤلاء ينكرون البعث حتى لا يكون هناك حساب فينطلقون في الشهوات.... فهو ينكر السلسلة من انكار البعث –أول السلسلة.

إذًا الذين كانوا يدَّعون أنهم علماء وجاؤوا يستمعون للقرآن عادوا للناس وقالوا: هذا أساطير الأولين، وقالوا: ليس هناك بعث!

ربنا سبحانه وتعالى على كل كلمة قالوها جاء لهم بمشهد أُخرويّ يخاطبهم ويهزّهم ويُضعفهم. يجب أن نتعلم كيف أن القرآن فيه خطاب لكل شخصية؛ الشخصية المستهزئة،غير الشخصية المعرضة، غير الشخصية الجاحدة –الذي يعلم ويجحد–، الأتباع غير المتبوعين، السادة غير الضعفاء، حتى السادة – المتبوعون– الذين يضحكون على الناس قالوا جملتين، كل جملة كانت لها طريقة للرد.

لما قالوا: "القرآن ليس حقًا وإنه أساطير الأولين"، ربنّا أوقفه على النار وقال له: القرآن حق أم ليس بحق؟! فقال له: أرجعني مرة أخرى فقط وأنا سأؤمن بأي آية فيه!

القول الثاني: قال: ليس هناك بعث {إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}، جاء بمشهد ثانٍ غير مشهد النار {ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق} أليس هذا البعث الذي أنكرتموه بحق؟! {قالوا بلى وربنا}[الأنعام: ٣٠]..

ما معنى: {ولو ترى إذ وقفوا على ربهم}؟ قالوا هنا: {على} تفيد الحصر والقصر؛ أي كأنه بقي واقفًا منتظرا حتى يحاسبه ربنا، [يُقال: سيُعرض على النيابة معناها مخيف وليس معناها أنه سيكون فوق النيابة، هذا سيبقى واقفًا ينتظر ليرى ماذا ستقول النيابة في أمره؟!ولله المثل الأعلى]

فهذا معنى: {إذ وقفوا على ربهم} فهو سيُوقَف -بقوة بأمر من الملائكة- حتى يأتي وقته للعرض على الله!

هو هنا كذَّب بالبعث، فربنا جاء له بمشهد العرض على الله وليس مشهد البعث، الثاني كذَّب بالقرآن فربنا جاء له بمشهد النار، يجب أن نفهم الروابط-وإن لم يكن عندي اجابات- أن الذي أنكر القرآن ربنا جاء له بمشهد الواقف على النار، والذي أنكر البعث ربنا جاء له بمشهد العرض على الله، فأكيد كل نفسية فيها شيء يؤثر فيها! مثلا؛ هل الذي رفض القرآن مسألته مسألة شهوات فلما يقف على النار يخاف؟ والثاني تخويف من العرض على الله؟

أيًا كان، الله -عز وجل- أعلم بمن خلق، وأعلم بمداخل النفوس، فهذه جاء لها رد وتلك جاء لها رد!

{ولو ترى إذ وقفوا على **ربهم**} وانتبه إلى {ربهم}التي تمشي معنا من أول السورة، {ثم الذين كفروا **بربهم**}[الأنعام:١]، {وما تأتيهم من آية من آيات **ربهم**}[الأنعام: ٤]، كل الذين يُعرضون عنه آثار الربوبية وآثار الرحمة واضحة فيه، فكيف تُعرضون عنه أصلا؟!

{ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا}[الأنعام: ٣٠]؛ قسم ثانٍ يوم القيامة، مثل القسم السابق {والله ربنا ما كنا مشركين}[الأنعام: ٢٣] الأقسام تتلو بعضها يوم القيامة، {قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}[الأنعام: ٣٠]، {قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله}[الأنعام: ٣١]، الآخرون ماذا قالوا؟ {يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا}[الأنعام: ٢٧]، هم يكذبون بشيئين: يكذبون بالقرآن، ويكذبون بالبعث، وهذان الأمران سببهما: {وما قدروا الله حق قدره}[الأنعام: ٩١] هذا ملخّص لغالب آيات سورة الأنعام؛ ينكرون البعث وينكرون القرآن، والسبب الرئيسي {وما قدروا

الله حق قدره}؛ لا يعرفون صفات ربنا، فتجد أن السورة مليئة بالكلام عن الله وفي الوسط كلام عن قضية القرآن وكلام عن البعث.

{قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون}[الأنعام: ٣١]. لما تنظر هنا الآية (٢٧): {ولو ترى إذ وقفوا على النار} هذا آخر مشهد قبل أن يُلقى في جهنم، بعد هذا مشهد: {ولو ترى إذ وقفوا على ربهم} آية (٣٠) هذا مشهد العرض على الله. آية (٣١) مشهد الساعة .. كأن المشهد يرجع بالعكس! يعني الطبيعي: الأول الساعة ثم العرض على الله ثم بعد ذلك يلقى في النار، الآيات رجعت بالعكس؛ جاءت أولًا بمشهد النار وبعد ذلك العرض على الله وبعد ذلك الساعة، وبعد ذلك آية (٣٢) تبدأ بـ{وما الحياة الدنيا} رجعت به للدنيا! يعني انظر للآيات جاءت به من أول الوقوف على شفير جهنم حتى رجع للدنيا مرة أخرى، أرجعته للدنيا وهي تقول له: {وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو}[الأنعام: ٣٢]؛ إذًا قبل أن تقول لواحد: الحياة الدنيا لعب ولهو، حتى يقبل منك اجعله أولًا يعايش النار، تكلم معه عن العرض على الله، تكلم معه عن البعث، وبعد ذلك قل له: الحياة الدنيا لعب ولهو.. بغير هذا لن يقبلها منك! صعبة على النفس.

يعني أنا حتى تقل لي: الحياة الدنيا لعب ولهو، واستغل حياتك وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، لن أستطيع أن أتقبلها منك إلا لما تكلمني عن النار ولقاء الله والبعث، عندها لما تأتي آية: {وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو} ستنزل موقعها في القلب!

كما قلنا دائما القرآن يخاطب الإنسان كبني آدم له مشاعر ولا يخاطب عقله فقط! كانت تكفي كلمة {الحياة الدنيا لعب ولهو} بدل كل هذا، لكن لا؛ النفس البشرية تحتاج إلى تذكرة وإفاقة قبل أن تقول لها الفكرة حتى تسقط في القلب مباشرة.

{حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها}[الأنعام: ٣١] (الهاء) هذه عائدة على ماذا؟ هناك من قالوا أن الهاء عائدة على الحياة الدنيا، وهناك من قال أن الهاء هذه عائدة على الساعة. لو كانت عائدة على الحياة الدنيا {ما فرطنا فيها} يعني ما فرَّطنا في أعمال صالحة، ولو قالوا الساعة {فرطنا فيها} يعني كنا لا نذكر الساعة في الدنيا، فالمفروض أننا نُكثر مِن ذِكر الساعة حتى لا

نندم! فكلما تمر علينا أوقات لا نذكر فيها الدار الآخرة سنندم يوم القيامة، كلما تمر علينا أوقات في الدنيا لا نذكر فيها وننسى الدار الآخرة، سنندم يوم القيامة!

الإنسان الذي لا يكثر من ذكر الآخرة يندم يوم القيامة.

{حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها} هو يتحسَّر هنا لما رأى أهل الجنة ينعَّمون فقال: أنا أضعت فرصة النعيم! المشكلة أنه ينظر للنعيم وفي نفس الوقت يحمل الأوزار على ظهره وتعب من حمل الذنوب ويتحسَّر على النعيم الذي ضيَّعه! فهو في حسرتين وألمين...على كل لحظة مرَّت عليه ضيعها من الطاعة، وعلى كل ذنب يحمله على ظهره!

طبعا الآيات هذه المفروض أن نُسقطها على أنفسنا وليس فقط أن نقول الآيات هذه تخاطب المشركين! ليس معنى أننا نفهم سياق الآيات والرد على المشركين المعرضين أننا لسنا مخاطبين بها الآيات؛ أبدًا... كثير من الآيات التي جاءت في المشركين والكفار كان الصالحين يبكون عند سماعها!

وسيدنا عمر لما وجد سيدنا جابر معه لحم فقال ما هذا؟ قال :لحما قَرِمْتُه -أي اشتهيته-، قال: "أو كلما اشتهيتم اشتريتم!"؛ كلما أحببت شيئا تشتريه! "أخشى أن نكون ممن ذكر الله فيهم {أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها}[الأحقاف:٢٠] الآية هذه ما أوَّلها؟ {ويوم يعرض الذين كفروا على النار} هي في الكفار أصلا! لكن إسقاط هذه الآيات مهم للإنسان، ليس أن يُطبق عليه نفس الآية لكن سيكون له منها نصيب -والعياذ بالله-.

فحين يرى الإنسان هذا المشهد: {يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم}[الأنعام: ٣١] فمستكثِر ومستقل!... كل ذنب الإنسان يرتكبه سيأتي يحمله على ظهره يوم القيامة -والعياذ بالله-.

وهنا أيضًا الأوزار الزائدة بسبب أوزار الإضلال -والعياذ بالله-، فهؤلاء ساهموا في إضلال الناس {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم}[العنكبوت: ١٣] -سورة العنكبوت-، وهذه الآية جاءت بعدما قالوا للضعفاء {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم}[العنكبوت: ١٢] لما سعوا لإضلالهم... ربنا قال سيحملون وزر الإضلال، وهؤلاء لن ينقص من أوزارهم شيء، فهنا-في سورة الأنعام-أيضًا يحملون أوزارهم {ألا ساء ما يزرون}.

الذي أهلكهم وأدخلهم في هذه المنظومة {وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون}[الأنعام: ٣٢]، غالب آيات القرآن إحياء لقضية الدار الآخرة عند الإنسان، لو أن قضية الدار الآخرة حية ومستَحْضَرة عند الإنسان كثيرٌ من النقاشات لن يخوض فيها، ولا أسئلة سيسأل عنها، ولن يسأل هل هذا مستحب أم واجب؟ مكروه أم حرام؟ أسئلة كثيرة وجدالات كثيرة جدا جدا يدخل فيها الإنسان، لو أن الدار الآخرة حية ويقظة في قلبه لن يسألها، ولن يتردَّد أن يعمل أشياء كثيرة! سيأخذ قرارات كثيرة جدا في حياته مُعطّلة، طابور قرارات إيمانية مُعطّلة في حياة الإنسان بسبب غياب يقظة الدار الآخرة!.. طابور من قرارات الحفاظ على الفجر في جماعة أو صلاة الضحى أو جلسة ضحى أو نصرة دين الله –عز وجل– أو أمر بمعروف ونهي عن منكر أو... أو... أو... طابور من القرارات مُعطلة داخل الإنسان بسبب غياب هذه القضية.

لذلك مسألة أن نقول عن إنسان ملتزم أو غير ملتزم؛ أنت ممكن تجد الإنسان الملتزم هذا ليس كثير الطاعات، بل ممكن تجد إنسانًا يُقال عنه غير ملتزم ويعمل بعض الطاعات أكثر منه! فما هي فكرة أن نقول عن إنسان ملتزم أو مستقيم أيا كان اللفظ؟ أن هناك شيئًا كان ميتًا عنده واستيقظ ! هناك وَجَل و خوف دخل في حياته، هناك طريقة تفكير جديدة في حياته، إذا ضيع صلاة الفجر

يظل خائفا طوال اليوم لأنه ليس في ذمة الله! النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله)[٣]، يبدأ يفكر بطريقة مختلفة، بدأ يقول سيد الاستغفار في أذكار الصباح وأذكار المساء، لماذا؟ يخاف أن يموت في أي لحظة، النبي صلى الله عليه وسلم قال أن الذي يقول سيد الاستغفار موقنا به فمات يدخل الجنة!

بدأت تصبح عنده طريقة تفكير جديدة، بدأ يتعامل مع الحلال والحرام بطريقة مختلفة، بدأ يسأل قبل أن يعمل أي شيء، بدأ يستخير.

• ٣ [عن أبي بكر الصديق:] مَن صلّى الصُّبحَ في جماعةٍ فَهوَ في ذمَّةِ اللَّهِ، فَمَن أخفَرَ ذمَّةَ اللَّهِ كبَّهُ اللَّهُ في النّارِ لوجهِهِ

المنذري (٦٥٦ هـ)، الترغيب والترهيب ٢١٩/١ • رجال إسناده رجال الصحيح.

إذًا مسألة الالتزام هي شيء يشتعل في القلب يغيّر طريقة حياته تماما، حتى لو لم يكثر من الأعمال الظاهرية، تجد أنه يبتعد عن المعاصي، طريقة حساباته تغيرت...هذا الإنسان الذي نقول عنه ملتزم، غيَّر في أصول حياته وليس أنه غيّر في رُتُوش حياته، أي ليس من فعل ثلاثة أو أربعة أعمال صالحة أو التحى فنقول عنه ملتزم! لا... القضية ليست تغيير رتوش؛ القضية تغيير عقيدة في الداخل، تغير في طريقة زواجه، تغير في طريقة عمله في الدنيا، في طريقة معاملاته مع الناس، وحتى لو لم يتغير بعد لكنه يعلم أنه مقصّر!... مثلا يقول: أنا أعلم أن عندي مشكلة في كذا، لكن هو تغير وصار يقبل النصح، عرف مصادر الحلال والحرام، يبدأ يبحث عن الحلال ... هذه طريقة تغير في حياة الإنسان تجعله مختلفا تماما.

هذا الذي لا يوقعنا في وضع {ولو ردوا لعادوا}... فهؤلاء لم يغيروا حياتهم! وُضع في أزمة ويريد أن يخرج منها، رأى النار أمامه ويريد أن يخرج، فالذي يلتزم نتيجة أزمةٍ نفسيَّة مرَّ بها أو لما تحدث حادثة موت واحد من أصاحبه ولم يأخذ القرار الصحيح، ولم يسِر في الأعمال الصالحة بشكل صحيح، أو بعد أزمة مادية اقترب من ربنا فجاءه المال!؛ الذي يلتزم في مثل هذه الظروف لو لم يزد في الأعمال الصالحة في الغالب لا يكمل في طريق الإيمان ، يجب أن يكون إيمان يزداد في الإنسان حتى يصِل في النهاية إلى {وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون}[الأنعام: ٣٢]، القضية قضية عقليَّة، كما كان الأخ يسأل: أليس الطبيعي أن الإنسان يختار الأفضل له؟ نعم؛ هذا العاقل {أفلا تعلقون}، إنما هو اختار الألذّ والأمتع وليس الأنفع، لذلك ربنا سمَّاها العاجلة، الذي أهلكهم {كلا بل تحبون العاجلة}[القيامة: ٢٠] -سورة القيامة-؛ أنك متعجّل على الشهوات والمتع.

إذًا الدار الآخرة يجب أن تأخذ قدر أكبر في حياتنا مما هي عليه! القضايا التي ذُكرت في القرآن كثيرًا: معرفة الله، الدار الآخرة، إهلاك السابقين، نصرة الدين، اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، حقارة الدنيا.. هذه القضايا الأساسية التي ذُكرت في القرآن كثيرًا يجب أن تأخذ حجمها الحقيقي في حياتنا.

الاهتمام بتفاصيل دينية قبل الاهتمام بالكليات الدينية يجعل عندنا بعض المعلومات الدينية، ونعمل بعض الأعمال الصالحة لكن لا نتغير، الصحابة تلَّقوا الدين تلقيًا صحيحًا، أخذوا الأصول الكلية، قضية الدار الآخرة اختلطت بلحمهم ودمهم، لذلك لما فُتحت عليهم الدنيا كانوا يفهمون أن هناك دارًا آخرة، فكان الذي يقاتل ويغنم، يحزن! المعادلات عندهم كانت غير التي عندنا... لما الدنيا فتحت عليهم ومُكّن لهم كان الصحابي يبكي -خباب يبكي- يقول: هناك إخوانا مضوا بأجورهم كلها لم ينالوا من

الدنيا شيئاً! مثل مصعب ابن عمير ...وعبد الرحمن بن عوف لما مكّن للإسلام في عهد سيدنا عثمان كانوا يبكون، ويغبطون أصحابهم الذين ماتوا في الاستضعاف، عكس تفكيرنا الآن؛ نحن نريد رخاءً واستقرارا وتمكينًا... أما هؤلاءِ فيبحثون عن البذل مستحضرين حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أيما سرية غزت فغنمت فقد استعجلت ثلثي أجرها)[٤] تخيل ..!

كانت موازينهم منضبطة... لماذا؟ عاشوا طويلا مع معرفة الله والدار الآخرة فكانت موازينهم صحيحة، فلما انفتحوا على العالم انفتحوا انفتاحًا مضبوطًا.

هذه الأسس ليست لدينا... نحن عندنا معلومة: حلال، حرام، مكروه.. وليست عندنا أصول الدار الآخرة!

آية مثل هذه لا تحتاج لدرس، بل تحتاج إلى طول تأمل ووقفات {وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون}[الأنعام: ٣٢]

الآية هذه لما تأخذ حجمها الطبيعي في حياتنا قطعا كثير من أعمالنا ستتغير، كثير من كلامنا لن نتكلمه... سنخاف، كثير من الانسياب الفكري والكلامي والأخلاقي الذي عندنا سينضبط.

نكتفي بهذا القدر، نكمل المرة القادمة -بإذن الله عز وجل-..

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك..

وجزاكم الله خيرا.

[٤] [عن عبدالله بن عمرو:] ما مِن غازِيَةٍ، أوْ سَرِيَّةٍ، تَغْزُو فَتَغْنَمُ وتَسْلَمُ، إلّا كانُوا قدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وما مِن غازِيَةٍ، أوْ سَرِيَّةٍ، تُخْفِقُ وتُصابُ، إلّا تَمَّ أُجُورُهُمْ.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ١٩٠٦ • [صحيح] .